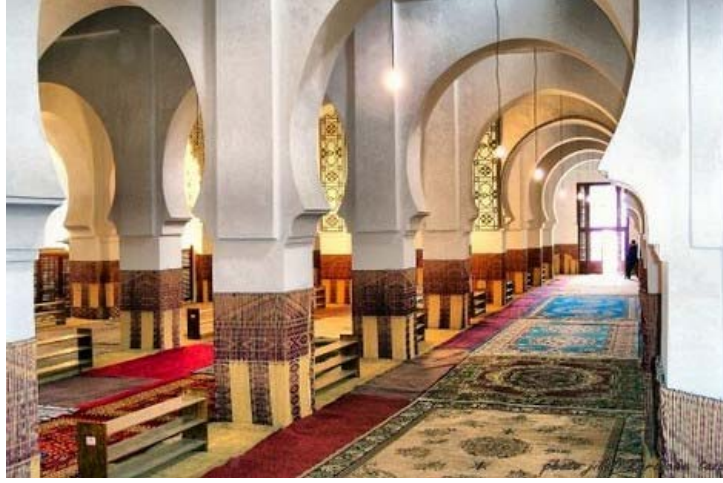


"الجامع الكبير" يعكس الغنى الحضاري والتنوع الثقافي لمدينة تازة



المصدر: الجريدة الإلكترونية هسبريس (WWW.HESPRESS.COM)

الرابط: <http://www.hespress.com/regions/268730.html>

عبد اللطيف الحربي *

الجمعة 03 يوليوز 2015 - 02:00

ما إن تطأ قدم الراغب في تقوى الله أول درج في الزقاق المؤدي إلى المسجد الأعظم بتازة العليا حتى تتقاذفه جحافل من الرجال والنساء والأطفال في عجلة من أمرهم متأبطين "صلايات" ومردفين استجابة لنداء المغفرة والتواب في شهر رمضان الأبرك، مع إعلاء كلمة "الله أكبر" من طرف مؤذن المسجد بغية أداء صلاة العشاء والقيام.

أفواههم لا تتوانى عن ذكر الله والاستغفار وأيدي بعضهم تمسك تسابيح بحبيبات ناصعة البياض تدل على الصفاء والنقاء والاستجابة لله عز وجل بقلوب خاشعة ومؤمنة به في شهر الغفران والتواب وفتح الجنان.

"تزاحموا تراحموا" كلمتان ينبه بهما الإمام عمار المسجد الأعظم من رجال ونساء وأطفال، والذين جاءوا تترى في مشهد روحاني مفعم بالإيمان والطاعة وتلبية لنداء المنادي ولسان حالهم يردد قول الله عز وجل "سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير"، ليقفوا صفا واحدا كالبنين المرصوص دون ترك أي فراغ بين المصلين دلالة على التراحم والإخاء والتماسك، وكذا لإحداث فضاءات فارغة لإخوانهم الذين لم يلتحقوا بعد لأداء صلاة العشاء والتراويح في أريحية وطمأنينة في هذا المسجد العامر.

فالدخول إلى المسجد الأعظم من أبوابه المفتوحة على مصراعها طيلة شهر رمضان الأبرك يوحي بأن هذا المسجد العتيق كان يتردد عليه سكان تازة والزائرين من كل حذب وصوب من أجل أداء صلاة الفرائض أو التراويح في شهر رمضان، وكان يحظى ولا يزال بمكانة عظيمة لدى الساكنة والعلماء وأهل الذكر والتصوف.

فولج المصلي إلى هذا المسجد لن يمر مرور الكرام دون التمتع في عظمة الثريا التي تتوسط المسجد، حيث زادته جمالا وبهاء هذه الثريا، المصنوعة من البرونز وترن 32 قنطارا ويحيط بها 514 سراجا وهاجا، وتضاهي عظمة مثيلاتها في المساجد الحديثة بالمملكة، أمر السلطان أبو يعقوب يوسف المريني بتعليقها سنة 694 هـ بالمسجد.

غير أنه مع توغل الراغب في تقوى الله رحاب المسجد يخطف بصره النقش المزخرف على الجبس والسقف المزين بالخشب المرتب على شكل هرم محدودب، وهو ما يعكس عبقرية الصانع المغربي وجمالية الفن الأندلسي الأصيل والغنى الحضاري والتنوع الثقافي لمدينة تازة. هذا الإعجاب بالموروث الحضاري وهذيان العظمة بتاريخ المدينة وعمرانها لن يكسره إلا صوت المأموم الذي يدعو الناس إلى أداء الصلاة.

بخطى متأنية يقبل شخص في مقتبل العمر بلباس تقليدي ناصع البياض على مصلين بقلوب خاشعة للرحمان وفي صفوف متراسة كالبنين، من أجل إمامتهم في عشاء يوم ليس كباقي الأيام، قبل أن يحل مكانه إمام آخر لإمامة صلاة التراويح. تتواصل هذه الأجواء الروحانية إلى وقت قريب من منتصف الليل قبل ذهاب المصلين إلى منازلهم من أجل تناول وجبة السحور والعودة إلى مواصلة قيام الليل حتى مطلع الفجر.

تفتخر ساكنة تازة بهذه المعلمة الوضاعة التي تعد قبلة لأهل العلم والذكر وملادا ربانيا لتأدية شعائرهم الدينية ومنارة ساطعة للعلم والمعرفة. فهذا المسجد ما يزال شاهدا على حضارة وعمق تاريخ تازة ويعتبر من أهم المعالم التاريخية منذ أن بناه الموحدون في أوائل القرن السادس الهجري غير أنه لم يبد على الشكل الذي عليه الآن إلا في عهد المرينيين الذين أتموا الشطر الثاني منه بإضافة ست بلاطات وقبة مشرفة على المحراب تعتبر من أبداع القباب تصميمًا وزخرفةً وأجملها رونقا وفتونا.

وما يزيد المسجد الأعظم رفعة ومكانة احتضانه على مر العصور الحفلات الدينية وتلاوة القرآن الكريم والمدائح النبوية الشريفة ما أهله لكي يكون قبلة لأهل العلم والذكر وكذا الساكنة التي تجد فيه ملاذا ربانيا لتأدية شعائرهم الدينية ومنارة ساطعة للعلم والمعرفة.

وبذلك أضحى المسجد الأعظم الذي يكبر جامع القرويين من حيث المساحة معلمة دينية وحضارية قائمة الذات احتفظت وما تزال على مر الزمن بإشعاعها العلمي والتنويري بفضل دروس العلم التي تلقى بين أركانها والدور الذي تضطلع به في مجال الوعظ والإرشاد.

وتتمركز في قلب المسجد الأعظم (الجامع الكبير) خزانة تعرف "بخزانة المسجد الأعظم" يرجع تاريخها إلى العهد الموحد حيث تضم عددا كبيرا من الكتب المخطوطة في شتى أنواع العلوم سواء كانت فقهية أو حية وقد أنشئت في أول الأمر بغرض حفظ كتب القاضي عياض من التلف خاصة كتاب " الشفا بتعريف حقوق المصطفى."

وتضم هذه الخزانة العديد من المخطوطات والوثائق والرسائل الموحدية الأصلية التي في مجملها للمهدي بن تومرت حيث نشر بعضها في كتاب "أعز ما يطلب" وقد بلغ عدد هذه المخطوطات 907 مخطوطا حسب الفهرسة التي نشرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وفي هذا الصدد قال الراحل عبد الهادي التازي، في إحدى محاضراته، "أجزم أن خزانة المسجد الأعظم بتازة ترجع إلى العهد الموحد وتعد كأقدم خزانة للكتب المخطوطة بالمغرب ولا تزال قائمة إلى الآن .. ذلك أنه علاوة على احتوائها على كتب القاضي عياض وخزائنه .. كانت تتوفر على المخطوطات والوثائق والرسائل الموحدية الأصلية التي في مجملها للمهدي بن تومرت حيث نشر بعضها في كتاب "أعز ما يطلب" المطبوع بالجزائر العاصمة سنة 1903 م، وغير ذلك مما وقف عليه الأستاذ محمد بن ابراهيم الكتاني من هذه الرسائل بخزانة المسجد الأعظم بتازة ونشره بمجلة هسبريس تمودا."

ومنذ تأسيس هذه المعلمة التاريخية حسب السلاطين وكثير من الناس الكتب العلمية والفقهية لفائدتها خاصة في عهد الدولة العلوية فأصبحت الخزانة تتوفر على كم هائل من الكتب المخطوطة حيث كونت بذلك ثروة علمية هامة صقل منها الكثير من العلماء والفقهاء الذين استوطنوا مؤقتا بمدينة تازة معارفهم العلمية والفقهية من قبيل لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمان بن خلدون والمختار السوسي وغيرهم كما كانت قبلة للعديد من العلماء والباحثين الذين كانوا يقيمون بتازة من أجل الاعتراف من منبعها العلمي (خزانة المسجد الأعظم (من بينهم ابن بري وابن جيبش ومولاي الطيب العلوي وإدريس ابن الأشهب وباحثين أوربيين كهنري باسي وهنري طراس وكومباردو وجان جون باي ولويس فوانو وغيرهم . إذن، فالزخم التاريخي والحضاري والديني الذي يحف المسجد الأعظم بتازة، هو الذي جعل هذا المسجد يحتل مكانة عظيمة لدى ساكنة تازة ويتبوأ درجة كبيرة لدى أهل العلم والذكر والتصوف عبر التاريخ ويقصده الناس من كل حدب وصوب.

المصدر: الجريدة الإلكترونية هسبريس (WWW.HESPRESS.COM)

الرابط : <http://www.hespress.com/regions/268730.html>

عبد اللطيف الحربيلى *

الجمعة 03 يوليوز 2015 - 02:00